لكن غيرة سايد بوثام على رؤية « التجربة السعيدة » التي مرت بها الامبراطورية البريطانية تتكرر مرة اخرى فوق ارض فلسطين — وهي الارض التي يصفها بـ «المنطقة الجديدة عبر الهند» — ليست وليدة البواعث الاستراتيجية والعسكرية وحدها . فالدولة اليهودية المقترحة يتوقع لها ان تلعب دورا يتعدى دور الدولة العازلة في خدمة المصالح الامبريالية البريطانية . اما اليهود فهم بالنسبة له يؤلفون المستعمرين المحتملين على نطاق واسع ويستحق الذكر في فلسطين . ولا ينازعهم في هذه الميزات منازع !

ان هربرت سايد بوثام يتصور المشروع الاستعماري الصهيوني في فلسطين بطريقة تفضح الكثير من عناصره الهرتزلية ، رغم ما يورده عن «القياس الهندي» . فهو يتحدث بالاسلوب الهرتزلي ذاته ، ويقول :

« لا شيء يبدو اكثر تأكيدا ، فيما لو اصبحت فلسطين تؤلف جزءا من الامبراطورية البريطانية ، من ان استعمارها بالمعنى الحقيقي لن يتم على يد أمثال اولئك الانجليز الذين عمروا كندا واستراليا . فاليهود وحدهم يستطيعون استعمار فلسطين » .

ثم يمضي صاحب هذا القول الى تطوير عناصر الحجة الداعية الى اجراء تجربة استعمارية يهودية تحت رعاية الامبريالية البريطانية على النحو الاتي :

« وحدهم يستطيعون انشاء ممتلكة مستقلة (dominion) وجديدة على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، حيث ترتبط هذه الممتلكة منذ البداية مع بريطانيا في العمل الامبريالي ، وتكون في آن واحد : حصنا واقيا ضد الشرق الغريب ووسيطا بينه وبيننا ، لا بل مدنية تتميز عن مدنيتنا لكنها متشربة بأفكارنا السياسية ، تقف وايانا في المرحلة ذاتها من التطور السياسي ، وتدشن حياتها الثانية كأمة تدين لهذه البلاد بعرفان الجميل وترى فيها الاب الثاني لها » .(٩)

فلنرجع الى عبارة ماكس نوردو الواردة في مطلع هذا القسم اذاك تتبدى لنا المغامرة الصهيونية الاستعمارية ، منذ مطلع عهدها تحت الاحتلال البريطاني لفلسطين وكأنها قد وطدت العزم على اداء المهمة المنوه عنها اعلاه : الوفاء بالدين المترتب عليها لحساب الاب الثاني ، اي الامبريالية البريطانية. وهناك وصف مسهب للدور الصهيوني في حماية المصالح الامبريالية البريطانية على لسان ماكس نوردو . ففي معرض تقديمه لوضع على اساس معضلة لن يستطيع حلها سوى الصهيونية وحدها ، نجده يكتب عام ١٩٢٠ ما يلي :

« ان انجلترا لا تستطيع ضم فلسطين ، لان الحلفاء تخلوا رسميا عن جميع المكاسب الاقليمية . اما اذا تركت فلسطين وشأنها لكي تخدم أمر مصيرها بيدها ، فانها سوف تصبح نقطة نزاع وخلاف بين فرنسا ودولة فيصل العربية . ولا يسع انجلترا ان تتخلى عن فلسطين لصالح فرنسا ، مثلما انها لا تستطيع بنفسها ان تقيم هناك جسرا ثابتا يصل بين الوطنيين المصريين الذين يشنون كفاحا مريرا للتخلص من الحماية البريطانية ، وبين الوطنيين العرب السوريين الذين يحلمون بأمبراطورية عروبية سرعان ما تشكل خطرا يتهدد امن قناة السويس وسلامة الطريق الى الهند».(١٠)

وقبل أن يدلي نوردو بهذه الاراء بسنة تقريبا كان الكولونيل ر. ماينرتزهاغن قد كتب الى رئيس الوزراء البريطاني من باريس اثناء انعقاد مؤتمر الصلح لكي يشرح التحدي الذي سيواجه مركز بريطانيا الامبريالي في الشرق الاوسط على يد الموجة القومية والوطنية العربية الصاعدة . اما الاقتراح الذي تقدم به ماينرتزهاغن بغية مجابهة التحدي السافر للوجود الامبريالي البريطاني في المنطقة فانه يتضمن الامور التالية :

« نحن لا نستطيع مصادقة اليهود والعرب على حد سواء. ويستند اقتراحي